

الحوار فاعلية



«الحوار قبل أن يكون أُطراً وهياكل، هو روحية واستعداد نفسي، يرتبط بوجودنا وقيَمنا الإسلامية، التي أسست لهذا الخيار في كلِّ جوانب وشؤون حياتنا.

والحوار لا يستهدف شيوع حال الفوضى في الآراء والمواقف، وإنما تضيق مساحات الخلاف والنزاع، وإبراز عناصر الوحدة والائتلاف. فمن ساحة الحوار تنتج الوحدة، وبالحوار تضمحلُّ الخلافات، وتزول أسباب الصراع العُنفي. ومن دون إرساء دعائم الحوار المتواصل مع تعبيرات الأُمَّة ومؤسساتها وفاعليتها المتعددة، يتم التعامل مع العديد من القيم والمبادئ كتهويمات أيديولوجية مجردة عن وظيفتها الحضارية، وبعيدة كلِّ البُعد عن النسيج المجتمعي.

وهكذا، فإنَّ الإنسان لا يجسد قيَمه إلاَّ بالمزيد من الحوار. حوار الإنسان مع ذاته، وحواره مع دوائره الاجتماعية المتعددة، وحواره مع طواهر الطبيعة لمعرفة أسرارها لتسخيرها بما يخدم العمران والتقدم الإنساني.

والحوار بين الأديان والتعبيرات السياسية ومكونات الأُمَّة الفكرية والاجتماعية، هو مشروع مفتوح على كلِّ التجارب، ويُفيد من كلِّ الممارسات والمكاسب الإنسانية، لذلك فإنَّ عملية الحوار مطلوبة لذاتها، وبحاجة إلى عمل الجميع من أجل إرساء دعائم وتقاليد الحوار الحضاري في فضاءنا المعرفي والسياسي.

وتنبع فاعلية الحوار من أنَّه يجعل كلَّ الآراء والفناعات والمواقف في ساحة التداول، لتقييمها وتمحيصها وتطويرها. ولا ريب في أنَّ لهذه العملية التداولية تأثيرات إيجابية في الصعيد المجتمعي، حيث إنَّها تحرك الراكد، وتساؤل السائد، وتبحث في آفاق وفرص جديدة ممكنة، وفي المحصلة النهائية تكون عملية الحوار فاعلية مجتمعية متميِّزة.

ونستطيع القول وبقناعة تامة، إنَّ النصَّ القرآني، هو نصُّ حوارِي بامتياز، فتحدَّث عن كلِّ الموضوعات والقضايا من دون موانع وعقبات، واستخدم في ذلك أدقَّ التعبيرات وأبلغها دلالة ومعنى، وأكَّد في آياته ضرورة التفكير والتعقل والتدبُّر والنظر والتأمل، ووبَّح أولئك النفر الذين يسرون

بلا هدى وبصيرة، أو يفلسدون الآخرين من دون علم ومعرفة، إذ قال تعالى: (قَالَ قَدِّمُوا لِي آيَاتِكُمْ إِن كُمْ تَكُونُونَ فَاسْتَفْتِيهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (يونس/ 89).

وقال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف/ 179).

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَنْبَغُوا إِلَيْهَا وَالَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ عَلَى آثَارِهِمْ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَالْحُدِيِّ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ فَأُولَئِكَ الْمَتَّاعُونَ الْعَارِفُونَ) (الزمر/ 17-18).

وعلاقتنا التجارب أن غياب الحوار كاستراتيجية لتنظيم العلاقات بين مجموع المكونات الدينية والثقافية الموجودة في عالم الإنسان، يهدد الجميع بانقسامات وتشطّيات تُصيبهم وتدخلهم في دهاليز القهر والعنف المتبادل.

لذلك من الضروري أن نؤمن، إيماناً عميقاً، بأن الحوار هو سبيلنا جميعاً لحل مشكلاتنا، وتجاوز موروث الحقد والضغينة.

ولكي نصل إلى المستوى الأخلاقي لممارسة الحوار بعيداً عن المُسَدِّقات الفكرية أو المواقف الجاهزة، نحن بحاجة إلى مجاهدة النفس، والتغلّب على الأهواء والنوازع الضيقة، والانعتاق من كل أشكال التعصّب الأعمى للذات أو لأفكارها وقناعاتها، والسعي الحثيث نحو الاقتراب من الآخر، ومحاولة فهمه بشكل مباشر. وذلك من أجل أن يكون الحوار في الداخل العربي والإسلامي، هو الأصل والثابت الذي لا نُحيد عنه، مهما كانت النوازع، ومهما كانت المشكلات التي تحول دون ذلك.

"إن تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة، فئات أو أفراداً، يفضي مع مرور الزمن إلى تفلّص شقة الخلاف بينهم، وذلك لدخول هذه الأطراف في استفادة بعضها من بعض، حيث إن هذا الطرف أو ذاك قد يأخذ في الانصراف عن رأيه متى تبين له، عند مقارعة الحجة بالحجة، ضعف أدلّته عليه، ثم يتّجه تدريجياً إلى القول برأي مَن يخالفه، أو يأخذ، على العكس من ذلك، في تقوية أدلّته متى تبين له قوة رأيه، مستجلباً مزيد الاهتمام به من لدن مخالفه، حتى ينتهي هذا المخالف إلى قبوله والتسليم به، وهكذا، فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء الذي يفرّق، فإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذي يشفي منه".

وإنّ الضرورة الحضارية تفرض علينا وعياً مزدوجاً لعملية الحوار الديني والثقافي، وعي مستوى الحوار الثقافي والإنساني الذي وصلت إليه المجتمعات المتقدمة بين دولها وتياراتها ومدارسها الفلسفية والفكرية والسياسية.

ووعي واقعنا العربي والإسلامي وتلمّس الممكنات المتوافرة لانطلاق هذه العملية الحضارية والعقبات التي تحول دون ذلك.

ومن خلال هذا الوعي المزدوج لعملية الحوار الثقافي تتأسس الظروف الموضوعية والذاتية لانطلاق مبادرات نوعية في هذا المجال.

ومن دون هذا الوعي تبقى الكثير من الخطوات شكلية ولا تخرج في كثير من مفرداتها عن موضوعة الاستهلاك ورمي الكرة في رمى الطرف المختلف والمغاير. وفي هذا الوضع تتجلى في الحياة الثقافية كلّ الأشكال الخادعة والمستعارة لعملية الحوار الثقافي.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ الحوار الديني والثقافي الذي يأتي في سياق وعي اللحظة التاريخية لواقعنا العربي والإسلامي ومتطلّباته الحضارية، ووعي اللحظة التاريخية التي تعيشها المجتمعات المتقدّمة، فإنّ هذا الحوار يُعدّ نواة صلبة للعمل الثقافي الجاد الذي يتراكم ويتواصل لخلق حالة ثقافية بصفات جديدة وعقلية حضارية تمارس القطيعة المعرفية مع تلك العقلية الضيقة التي لا ترى في الوجود إلاّ لونين إما أسود أو أبيض.

وليس ما أقوله هنا إسقاطاً لمفاهيم غريبة عن تطلّعات حياتنا الثقافية، وإنما هي من تطلّعاتها الجوهرية ومطامحها الأولى.

وبالتالي فإنّ الحوار الديني والثقافي ليس تصدّعا في الذات الثقافية، بل هو إثراء لها، وإضافة نوعية إلى بنائها وسياقها المعرفي.

وإنّ أهم ما تُمارسه عملية الحوار هذه أنّها ترفع الأوبد عن الإبداع وآفاق الثقافة الجديدة.

وعلى كلّ حال من الأهمية بمكان على كلّ الصعد والمستويات، ألا تدفعنا اختلافاتنا الدينية والفكرية والسياسية إلى القطيعة والجفاء والتباعد، وإنما يجب أن تكون هذه الاختلافات مدعاة إلى الحوارات العميقة، لا لكي تنتقل في قناعاتنا، وإنما من أجل أن نتعرف إلى وجهات نظر بعضنا البعض، ومن أجل إزالة الاحتقانات النفسية المصاحبة للاختلافات الفكرية والسياسية، ولكي يتم تنشيط دور القواسم المشتركة بين الجميع، بحيث الاختلافات لا تلغي المشتركات وتحول دون ممارسة دورها ووظيفتها في الحوار والتعاون والتضامن.

إنّ ما يشهده الواقع العربي والإسلامي من أحداث وتطوّرات خطيرة، تؤكد ضرورة إعادة الاعتبار إلى الفريضة الغائبة في هذا الواقع، وهي فريضة الحوار والتعارف والتواصل الإنساني المتعددة والمتنوع. فالحوار هو طريق إجلاء الحقائق والوصول إلى صيغ لتفعيل المشترك الإنساني، وسبيلنا للحفاظ على مكتسبات الأُمّة والوطن.

لقد عانت شعوبنا الولايات وما زالت تعاني من جرّاء التعصب وسوء الظن والنزوع الاستبدادي والعقلية المتحجّرة التي تساق بين أفكارها ومشروعاتها، وبين الحقّ والحقيقة.

إنّ الدرس العميق الذي يجب أن نستفيده من تجارب العديد من الدول العربية والإسلامية، التي عانت وما زال بعضها يعاني من العنف والتطرف والقتل المجاني، هو: أنّ الفريضة التي يجب أن يتّجه الجميع إلى إحيائها هي فريضة الحوار. فهي وسيلتنا لصون الحرّيات، وحل المشكلات، وتحول دون الكارثة والتدمير الشامل.

والحوار هو سبيلنا إلى التجدد والتطور، والهويات الثقافية لا تقوم على المطابقة والتماثلية المميّنة، وإنما على التعدد والتنوع المفضي إلى إثراء المضمون الحضاري لمفهوم الهوية الثقافية. وبالحوار يتكامل منطلق الاختلاف ومنطق الاعتراف، وصولاً إلى تأسيس دينامية اجتماعية جديدة، تتجه صوب التطلّعات الكبرى للوطن والأُمّة.

ولنتذكر دائماً وصية الحكيم لقمان لابنه حينما قال: "يا بني، كذب مَن قال إنّ الشرّ بالشرّ يُطفأ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ولينظر، هل تطفئ إحداهما الأخرى، بل يُطفئ الخير الشرّ، كما تطفئ الماء النار".

وإنّ الحوار العميق والجاد بين مجموع القوى والتعبيرات المتوافرة في الأُمّة والوطن، هو الذي يوفر الأرضية المناسبة لترجمة وتنفيذ الكثير من المشروعات السياسية والمجتمعية.

بمعنى أنّ الحوار يُساهم بشكل أساسي بتذليل عقبات الواقع، التي تمنع من تنفيذ الكثير من الطروحات والمشاريع. وفي المقابل فإنّ الاستبعاد والإقصاء، يقضي على كلّ الممكنات المناسبة للقاء والائتلاف، كما أنّ هذا المنطق يحرك كلّ غرائز ونزعات الخصام والتباغض والكره بكلّ أشكاله ومستوياته. ▶

المصدر: كتاب حوار الأديان وقضايا الحرية والمشاركة

